



فاطمة ناصر

كيف رأت العيون الألمانية مسقط؟

حين قرأت ما كتبه الباحث محمد العمري، في مجلة التسامح، والذي حمل عنوان: (نصان حول مسقط بلسان ألماني وعيون رحاليه). والذي يتكلم فيه عن وصف مسقط في القرن الثامن عشر، من خلال نصين ألمانيين حملا العناوين التالية:
النص ١: مسقط وسلطانها، نشر في ١٨٣٥ النص ٢: تقرير حول مسقط، نشر عام ١٨٨٨ في مجلة (Globus) الألمانية.
إن قراءتي لهذه النصوص كانت ذات أثر كبير في نفسي، فما تتناوله هذه الكتابات الألمانية من وصف دقيق للمكان والإنسان في مسقط، هو وصف لمعيشة أجدادي. فأنا من مسقط أو (مسكد) كما يحلو لأهلي تسميتها. غادرت عائلتي مسقط منذ السبعينيات، ولكن بيوتنا القديمة لازالت هناك. ولأني من جيل الثمانينيات، لم أحظ بشرف السكن فيها، إلا أن ارتباط المسقطي بمكانه عظيم. فوجدتني أزورها مع أهلي أسبوعياً، يستعرضون خلال تلك الرحلة القصيرة، الكثير من تاريخ المدينة وذكرياتنا. ما استعرضه الكاتب من كتابات الألمان حول مسقط قديماً، ليس بالجديد علي، ولكنه وصف أضاف لما أعرفه الشيء الكثير.

عمان وإلى مسقط ليست بالرحلة القصيرة، فتراهم بينون مسكناً مؤقتاً، عماده الجدوع والسعف.
الدين والعادات:

يستغرب الكاتب من كتابة المؤرخين الألمان حول الدين في مسقط وممارسة السلاطين له، على الرغم من أن القرن الثامن عشر - العهد الذي كتبت فيه المقالات - يتسم بفصل الدين عن الدولة في أوروبا. ولا أرى عجباً في هذا، بل سيكون من المستغرب تجاهلهم لوصف ممارسة الدين في عمان. في الوقت الذي فصلت فيه أوروبا الدين عن شؤون الدولة، رأى هؤلاء الرحالة أن الدين يأخذ مساحة كبيرة من وقت الحكم. وعلى الرغم من طول فترة ممارسة الصلوات، إلا أنهم لاحظوا حرص السلطان على الاجتماع بموظفيه لإدارة الدولة. كما لم يؤثر هذا التثبث بالدين وتعاليمه على السلاطين فلا تراهم يضطهدون أصحاب الديانات الأخرى، بل يوفرون لهم الحماية والعيش الكريم. ومن المثير بالنسبة لي، ذكر أحد التقارير وجود كاتدرائية عظيمة في أعلى الحصن الذي بناه البرتغاليون، ويتعجب الكاتب من بقائها، رغم انتصار الهلال على الصليب، في إشارة إلى انتصار العمانيين على البرتغاليين. وهذا إن دل على شيء، فيدل على وسطية العمانيين، الذين إن انتصروا لم يطمسوا معالم غيرهم ولم يفتكوا بها.

الفقر والتجارة:

من المثير ذكر هذه التقارير ازدهار التجارة البحرية وسوق مسقط الحيوي، ورفاهية سكن التجار، دون أن ينعكس على الأوضاع الاقتصادية للعامة، فوصفت بيوتهم كبيوت الأرناب، يعلوها الدمار، وفقرهم المدقع ومأكولاتهم اليومية التي لا تتعدى السمك والتمر.

أشار أن ميناء مسقط قد علت وبرزت أهميته، بينما وللأسف انهارت موانئ أخرى، كانت لها شأن كميناء (صحار).
المعمار والبيئة:

يتأثر معمار أي مدينة ببيئتها، سواء أكان التأثير سببه المناخ الذي يحدده موقعها الجغرافي أو تأثير أحوالها الاقتصادية من فقر ورخاء. أما مسقط فكان مناخها رطباً وحاراً لقربها من البحر، ويزيد الأمر تعقيداً إحاطة الجبال بها، وضيقها وصغرها المساحي. فتذكر التقارير السكك الضيقة، وكيف أن المطر إن نزل فيها يأخذ وقتاً إلى أن يجف. أما المساكن، فقسمتها حسب ما ورد في التقارير إلى نوعين:
١- مساكن على طراز جيد من الرفاهية: (تميزها بعض الزخارف ونوعية الحجر كالجير الأبيض): وهي قصر السلطان وبيوت التجار.

٢- بيوت الطين والأكشاك: بيوت عامة الناس. (حيث ورد وصفها في هذه التقارير وأيضاً الكتابات العمانية، منقسمة إلى بيوت: خارج السور وبيوت داخل السور) ونعني هنا السور الذي يطوق مسقط. فالبيوت داخل السور: تكون من الطين والتراب، بينما خارج السور تكون السعف وجدوع النخيل. ولا يسهب الحديث عن سبب هذا التباين. ولكن أضيف هنا بعض ما تعلمته من أهلي - فهم كانوا يسكنون داخل السور - بيوتهم كانت من طين، بل إنهم عاشوا في فترة من الفترات في خيم، يكاد لا يفصل بينهم وبين مواشيهم حاجز. بل يؤثر حماية البقر والمواشي على راحتهم، فهي كانت مصدر الرزق، إن ماتت هلكوا من الفقر.

أما عن سبب بناء البيوت خارج السور من السعف، فلعل السبب يعود إلى أن السكان خارج السور هم ليسوا من سكان مسقط، فهم غالباً من دواخل عمان، يأتون لمسقط لبيع ما لديهم ولشراء ما يحتاجون إليه. ولأن الرحلة من داخل

مسقط الإنسان:

وأعني بالإنسان ساكن مسقط، العماني وغير العماني. فكلهم في حضرتها مسقطيون، لا يتنازرون بدين أو عرق. (التسامح) أساس قديم لم يكن أحد يعرف لفظه، ولكن الجميع يعرف ممارسته. شيء أقرب ما يكون للفترة. ولعل ما يميز مسقط عن دواخل عمان، هو الميناء الذي يفتح أذرعاً للقادم إليها. فهو ليس بضيف عابر، إنه مصدر رزق، يترقبه الناس. وكثر هم الضيوف، الذين لم يشاؤوا أن يظلوا ضيوفاً، فأثروا أن يصبحوا سكاناً فيها، وأبرزهم تجار (البانين)، الذين ورد ذكرهم في النصوص الألمانية، التي وصفت مناخ التعايش في مسقط حينها، حيث جاء: «تعتمد مسقط على التجارة في الدخل اليومي، ويعود ازدياد أهمية التجارة إلى تحررية فكر السلطان الحالي، وتحت سلطته المعتدلة تتوفر سلامة كل تاجر من التجار وأملاكه، وفي نفس الوقت تتمتع جميع الأديان بالقبول، ولا أحد من هؤلاء التجار تعرض للسب أو لاغتصاب تعسفي للأموال من قبل أتباع الرسول».

مسقط البحر:

البحر عيون مسقط، به أبصرت وتبصر العالم. لولا هذا البحر الكريم، لما وصل هؤلاء الرحالة إلى مسقط وكتبوا ماكتبوه عنها. وقد لفت نظر الرحالة، أنه على الرغم من قوة عمان البحرية وقتها، لم تتركس أسطولها البحري لغاية حربية فقط. بل استغلت السفن الحربية - وخاصة الصغيرة منها، في التجارة، ونقل البضائع من الشرق الأفريقي إلى كالكتا والخليج العربي. ولميناء مسقط مكانة كبيرة وقتها (القرن الثامن عشر)، حيث أشارت التقارير إلى حيوية الميناء، الذي كان مصدر الزرق الأساسي للمدينة. ومن المهم أن نذكر ملاحظة مهمة وردت في أحد هذه التقارير، حيث